الصياد والسمكة

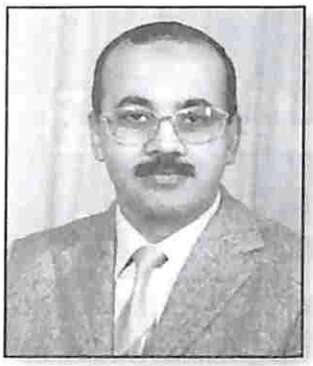

بقلم: د. حمدي شعيب
مصر

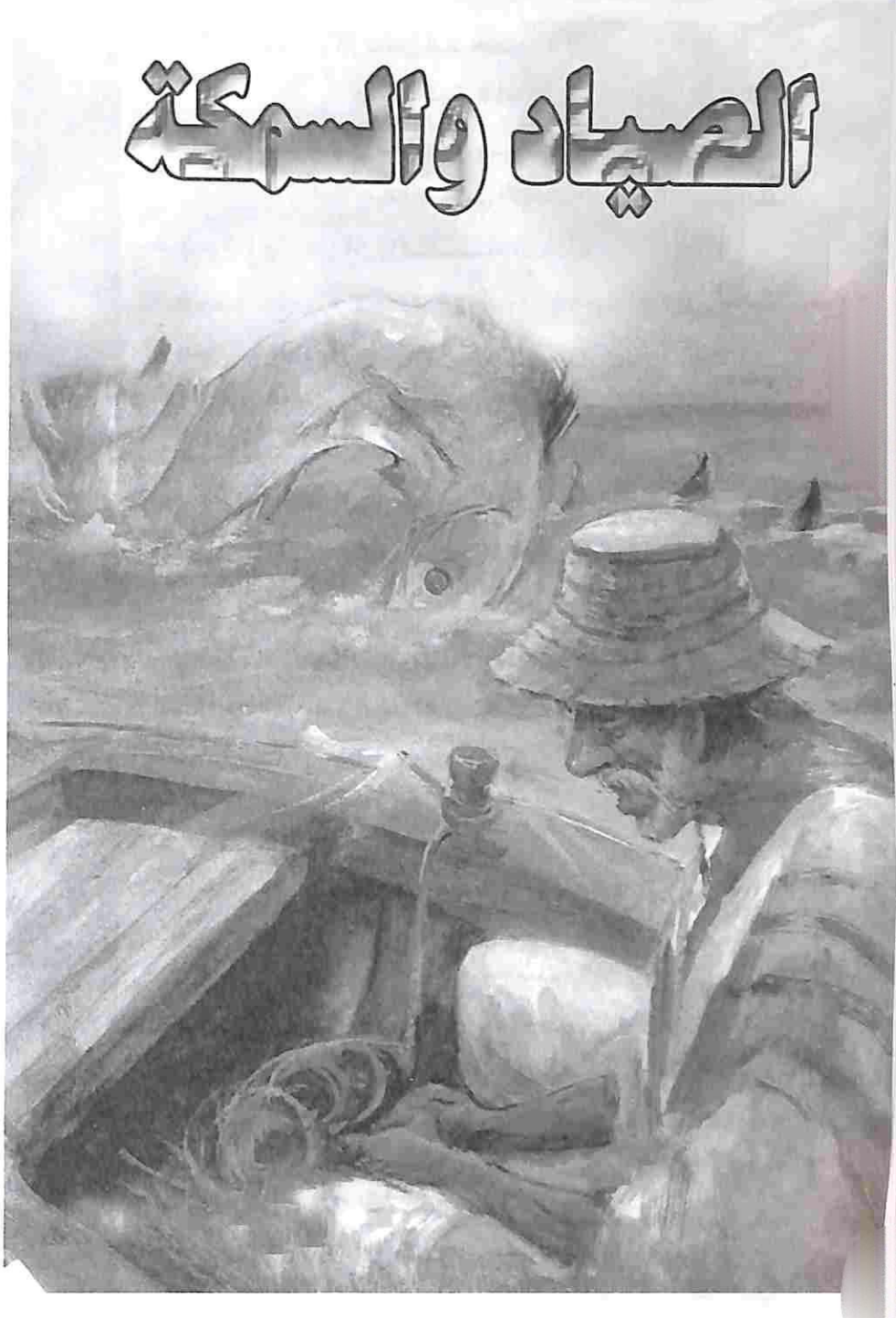

لقد كان أمرا مرا، ألا يظفر الصياد العجوز بأية سمكة طوال أربعة وثمانين يوما. لقد ساءت سمعته بين الصيادين.

ولكن راوده الأمل في ذلك اليوم بأن الحظ سيعود ويطرق بابه، وعليه أن يصمم على أن يصيد في محاولة أو مغامرة جديدة، بعيدا وراء المنطقة التي اعتاد غيره الصيد فيها، في محاولة لإثبات الذات، ولإعادة كبريائه كرجل له تاريخ، وأن يتوغل وحيدا، حيث منع والدا صديقه الغلام من الصيد معه منذ أربعين يوما، خشية عليه، وتشاؤما من صديقه ومعلمه العجوز.

وبعد أيام من التعب المضني، حصل على السمكة التي كانت في أضعاف حجم مركبة، وبعد معركة عظيمة معها، تأخذ الجزء الأكبر من السياق، نجح في ترويضها وإضعافها ثم إماتتها، وسحبها وراءه في سعادة.

وفي الطريق خرجت عليه جماعات من سمك القرش، وبعد مقتلة رهيبة معها، وصراع طويل، استطاعت هذه الجماعات المهاجمة من تمزيق سمكته.

ووصل إلى الشاطئ، ولم يبق من سمكته إلا هيكلها العظمي، وخلع العجوز الصاري من مكانه، وطوى شراعه، وحمله على كتفه ومضى إلى كوخه وهو يتمايل، وهناك يتمدد فوق فراشه وينام.

وجاءه الغلام بالطعام والقهوة وجلس يراقبه، ويقول لمعلمه :

يجب أن تسترد عافيتك سريعا، فهناك الكثير الذي أستطيع أن أعلمه، ويمكنك أن تعلمني كل شيء، وإلى أي مدى عانيت ؟!.

ذلك هو مجمل قصة رائعة من الأدب العالمي، وهي (العجوز والبحر) للكاتب الأمريكي (أرنست هيمنجواي)، والحائزة على جائزة (بوليترز) عام ١٩٥٢ م، وجائزة (نوبل) في الآداب عام ١٩٥٤م.

عندما قرأت هذه التحفة الرائعة، انطلاقا من قواعد أدبية مطردة، وسنن اجتماعية ثابتة، تحدد الرؤية أو الإطار الفكري الذي على أساسه تقرأ الأدبيات، وهي:

١- أن أدبيات كل عصر ما هي إلا مرآة صادقة للحقبة الزمانية والمكانية، التي تصدر عنها.

٢ - أن الأدبيات تعتبر أيضا خير شاهد على عصر الفكرة التي تدور في عقل صاحبها، والمرحلة الفكرية والثقافية، بل والتربوية التي يمر بها.

٣ - أن سلوك أي فرد أو جماعة أو أمة من البشر، ما هو إلا ترجمة صادقة لما يحلمونه من أفكار.

أي أن السلوك يكون حسنا أو سيئا، تبعا للفكرة المحركة.

وهذه القواعد كما تنطبق على حاملي الأفكار وأصحابها، فهي كذلك تنطبق على قارئي ومحللي أو منتقدي تلك الأفكار.

ولهذا فقد كثر آراء النقاد حول هذه الرواية العالمية الرائعة.

فمنهم من صور صراع الصياد مع القرش، على أنه يمثل حياة الكاتب وصراعه مع النقاد وخصومه المعاصرين له.

ومنهم من حلل القصة، على أنها تمثل الصراع الإنساني في الحياة.

ومنهم من حلل القصة، على أنها تمثل صورة من العلاقة المنشودة بين جيل الشيوخ ذوي الخبرة وجيل الشباب المتحمس.

ولكننا عندما نقرؤها قراءة معاصرة، من خلال منظور فكري إسلامي منهجي شامل، نجدها تجيب عن إشكاليات خطيرة، على المستوى الفردي والجماعي، خاصة الجانب الحركي الإسلامي، وذلك حول قضية الصراع من أجل الثمرة.

وهي القضية التي يمكن تحليلها إلى مراحل خمس:

المرحلة الأولى : مرحلة القراءة الصادقة للواقع:

وهي التي يمثلها في القصة رؤية الصياد لوضعه بعد هذه السن والتجربة، وفشله في الصيد لمدة طويلة واهتزاز هيبته.

وهي المرحلة التي تمثل نقطة البدء أو القاعدة في الانطلاقة الفردية أو الجماعية، نحو أي هدف.

وهي تمثل ضرورة القراءة العميقة للواقع.

وذلك في محاولة مهمة وجدية لتشخيص الداء ووصف الدواء والعلاج.

وأي حركة فردية أو جماعية لا تقوم على استقراء للواقع، تعتبر حركة بلا قواعد، أو بنيان بلا أساس.

وأي حركة غير محددة الهدف أو الغاية، تعتبر قفزة طائشة إلى المجهول.

المرحلة الثانية : مرحلة الانطلاق وتأمل الأهداف التي وضعها الصياد للانطلاق:

لقد قرر أن يقوم بمحاولة غير تقليدية، ومغامرة لا يقوم بها إلا من له تاريخ، فيقتحم ما لم يقتحمه من سبقه، وذلك لإثبات ذاته، ولإعادة كبريائه كرجل له تاريخ معروف.

وهي المرحلة التي تبين مرتكزات أو مسوغات التحرك نحو الغاية.

وهذه المرحلة لها ضوابط مهمة يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار:

١- أن تكون مبنية على أساس استقراء الواقع.

٢ - أن تكون محددة الأهداف والغايات.

٣ - أن تكون قائمة على أساس معرفة الإمكانات الذاتية، والقدرات المتاحة.

ولذلك فإن الصياد قد فقه ظروفه ووضعه، وقرر التحرك نحو غاية معينة.

ولكن يؤخذ عليه، أنه سار نحو تلك الغاية الجديدة بنفس القارب المتواضع، ولم يصاحبه الغلام.

أي سار نحو غاية غير تقليدية، بإمكانات تقليدية، بل ويبدو فيها بعض القصور.

وكذلك، فمن أراد أن يترك أثرا، فعليه أن يقوم بعمل مميز، وأن يبدع، وأن يجدد، ولا ينسى مقدار إمكاناته، وإلا كان الإحباط من نصيبه !.

وكن رجلا إن أتوا بعده

يقولون : مر وهذا الأثر

المرحلة الثالثة : مرحلة الصراع للحصول على الثمرة

وهذه المرحلة تتمثل في صبر وقوة احتمال الصياد، وهو يسير وحيدا إلى المكان الجديد، وهو على ثقة من أنه سيحصل على ما يريد.

وهي المرحلة التي تصور الصراع وأشكاله المنوعة في سبيل الحصول على الهدف. وتعتبر هذه المرحلة، هي المحور أو الجزء الأكبر من القصة.

وهذه المرحلة على المستوى الفردي أو الجماعي، هي المرحلة الأصعب ولكنها على صعوبتها يكون لها من المميزات الكثير حيث تكون القوى الفردية أو الجماعية في أشد عنفوانها، لما لها من خاصية التحدي، والنظر دوما إلى الغاية، لذا فإن البذل وإن كان شاقا لكنه يبدو لذيذا.

وهي من أخصب الفترات تربويا.

وهي التي لا يثبت فيها إلا الرجال.

وهي من نوع الابتلاء بالشدة.

المرحلة الرابعة : مرحلة الحصول على الثمرة

وتأمل مدى النشوة التي أخذت الصياد العجوز، وهو يرى الحبال، تنجذب بقوة فيتخيل حجم ونوع السمكة التي حصل عليها.

وهي المرحلة التي تصور السعادة والنشوة الغامرة التي تصاحب الحصول أو الوصول إلى الهدف. أو اقتطاف ثمار النصر.

وهي اللحظات التي يستشعر فيها الفرد أو الجماعة. مدى السعادة عندما تطأ الأقدام الغاية. وتتحسس الأيدي الهدف.

وهي لحظات !!! بل لحظات قليلة.لأنها لا تدوم طويلا، وتصبح مهددة من قبل تحديات ومشكلات المرحلة الأخطر والأصعب وهي المرحلة الأخيرة.

همنجواي

وهي التي تعتبر من أقسى منعطفات الطريق،فقد تنسي هذه النشوة مدى توابع ذلك النجاح.

فكثير هم الذين يجيدون فن تناوش الثمرة، والقليل هو الذي يجيد فن المحافظة عليها.

وملفات التاريخ وأحداث الواقع تفيض بالتجارب الكثيرة لمن نجح في الوصول إلى قمة الجبل، ولكنه يسقط لأنها قمة، ولاتتسع إلا للقليل!.

وهي من نوع الابتلاء بالنعمة.

المرحلة الخامسة: مرحلة الصراع لحماية الثمرة:

وهي المرحلة التي أخذت الحجم الثاني بعد مرحلة الصراع في القصة.

وإن كان الكاتب قد أبدع وتعمق في تصويرها. لأنها تتظلل بالأحداث المأسوية، حيث نعيش مع الصياد المخضرم، ونرى كيف يضيع حلمه الكبير منه، لحظة بلحظة!؟.

وتنتهي بمأساة ضياع السمكة من بين أيدي الصياد العجوز الخبير.

وهي أخطر المراحل وأشدها حرجا؛ حيث تصور الصراع الرهيب والحنكة المطلوبة، في حماية الثمرة،والمحافظة عليها.

وهي المرحلة التي تتساقط عندها الأحلام.

وهي المرحلة التي تعتبر العقبة الكئود

وهي بيت القصيد الذي نركز عليه في تلك القراءة المعاصرة.

وذلك لأن معظم ظواهر النكوص، وأكثر أسباب الخلل:بل إن أخطر الانتكاسات إنما تبرز في تلك المرحلة.

ومن خلال ظلال القصة،تبرز تلك التساؤلات التي تحتاج إلى دراسات جادة، من أجل الإجابة عليها!.

وتحتاج إلى صياغة معينة وتربية خاصة من أجل محاولة العلاج!.

ومن هذه التساؤلات؛ والتي سنحاول من خلالها استقراء وتحليل أسباب ضياع سمكة الصياد؛واللبيب هو:-بل هو فقط هو- الذي يفقه مغزى هذه التساؤلات:

أولا: هل أخطأ الصياد،عندما توغل وحيدا ؛دون مساعدة من أحد؟!. فهل كان عيبا، أو نقصا في عقليته؛ أن يطلب المعاونة والتنسيق مع غيره، فجنى حظه من أسلوبه الانفرادي؟.

ثانيا:هل كان حظه أن السمكة كانت أكبر من حجم قاربه؟!.

هل كان خطأ الصياد أن حلمه كان كبيرا؛ أي أن الهدف كان أكبر من الإمكانيات؟.

هل نسي المثل الأجنبي:

(لا تملأ فمك بما لا تستطيع مضغه)؟!.

ثالثا: هل كان الخطأ أن التجربة مثلت تجربة الشيوخ ذوي الخبرة ولم تمتزج بحماسة الشباب،حيث لم يخرج معه الغلام؟.

وهل كان يشفع له أنه كان خلال تلك المرحلة، يصيح مرات مفتقدا صديقه وتلميذه الغلام؟.

رابعا:هل كانت مشكلته أن والدي الغلام رفضا خروج ولدهما معه، خوفا عليه من حظ أستاذه العاثر؟!.

هل كانت مشكلته أن هذين الوالدين،وكذلك الجيران الذين استهزؤوا به؛لم يعيشوا مشكلته معه، ولم يشاركوه ألمه وقضيته؟!. أي أن العيب كان فيه وفي انعزاله عن جماهير الصيادين حوله!!!.

خامسا:هل كان الخلل الأكبر في فشله هذه المرة، كان مرجعه الأساسي إلى الظروف المحيطة والعوامل الخارجية: مثل البداية السيئة؛ وهي عدم المشاركة الجماهيرية له؛فتركوه وحيدا يصارع من أجل حلمه الكبير.

ومثل النهاية المأساوية؛ حيث الهجوم الرهيب من أسماك القرش؛الذين قفزوا على سمكته والتهموها بقسوة. ولم يك مرجعه إلى العوامل الداخلية والأسباب الشخصية؛ التي ألمحنا إليها في التساولات السابقة؟!.

وتأمل حواره الحزين الأخير مع غلامه وتلميذه المخلص (مانولين)!.حقا لقد انتصروا علي!.

فقال الصبي :

- إن السمكة لم تهزمك!.

- حقا، ولكن حدث ذلك فيما بعد!.

ولكن... تبقى التجربة ملكا لتاريخ، ورصيدا للأجيال.

حيث تصور نهاية القصة بعض السائحين الذين قدموا، وسألوا -معجبين-عن صائد تلك السمكة العظيمة!.

وكذلك... يبقى الأمل دوما، ويبرز الثبات ضرورة وركنا أساسيا في حركة العاملين على الطريق.

وقد يأتي هذا الثبات على لسان أصغر فرد!!!.

وتدبر قول الغلام، في حواره الأخير مع أستاذه العجوز،وهو يعطي معلمه الأمل، ويصمم على مصاحبته في محاولة أخرى، تصحح الأخطاء، وتستدرك الخلل:

- يجب أن تسترد عافيتك سريعا، فهناك الكثير الذي أستطيع أن أعلمه، ويمكنك أن تعلمني كل شيء، وإلى أي مدى عانيت؟!.

- وماذا ستقول لأسرتك؟!.

-لايعنيني هذا!.-يجب أن نأتي برمح قاتل قوي...

وتعيد القصة في كلماتها الأخيرة القليلة،منظر الصياد وهو يحلم بتجاربه السابقة، ويستعيد رصيده القديم،لقد كان يستعيد حلمه بالسباع والأسود!!!؟.

فالإحباط ليس من شيمة الرجال.

واليأس ليس من شيمة المؤمنين بأهدافهم. ■